

قضايا الأدب والأدباء

حول أدب القوميين السوريين :

البعث والرماد

بقلم رجاء النقاش

لقد تألنا ياسيدي ان يقع المسؤولون عن رعاية الفكر والادب في عالم العروبة بمثل هذا الجهل الفاضح . وازدادت رغبتني بعد مقالك في التعرف الى هذا الشاعر ادونيس الذي نقيم له في العراق أهمية عالية جدا ، وربما سندعوه لزيارتنا حيث نسمع بعض شعره .

وهو يا سيدي مع اعترافك بموهبته ، يعتبر طبيعة شعراء العالم العربي والشاعر الوحيد تقريبا الذي استطاع ان يجعل من الادب العربي على مستوى العالم . وهو ايضا في رأيي ، اعظم ثلاثة شعراء انجبهم تاريخنا على مر العصور : احدهم مات طفلا ، قبل أبي العلاء ، والاخر لم يولد بعد * ...

ويحلو لي ان أشبه خطيتك المميتة هذه بذلك الخطأ الذي ارتكبه تلميذ ابتدائي عندما قال لاسناده :

« الحسن والحسين بنات معاوية » فاستغرب الاسناده وقد صحح له:

اولا - الحسن والحسين لا الحسن والحسين .

ثانيا - اولاد وليس بنات

ثالثا - علي وليس معاوية

ارجو ان تبقى سيدي ذخرا للادب العربي ... وارجو اخيرا ان يتروى اخواننا المصربون في المسائل الفكرية والادبية على الاقل بحيث لا يتعرضون لها وهم محششون او محششات - احمد مهدي الامام » . هذا هو نص الرسالة التي وصلتني من صاحب التوقيع ، والذي اعتقد كما قلت انه توقع زائف لواحد من مجموعة مجلة شعر المعروفين . وقد حرصت ان أنشر هذه الرسالة كاملة لكي يرى القراء العرب صورة اخرى من اخلاق هؤلاء القوميين السوريين ، ونفسيته الملبئة بالحق والبرارة والضيق بكل من يحاولون فهمهم وكشفهم على حقيقتهم .

والرسالة لاتحمل أي وجهة نظر موضوعية ، وانما تعتمد على تسقط بعض التهم الجزئية الهزيلة وترديدها ضد كاتب هذه السطور وضد المصربين على وجه العموم ، لم يحاول صاحب الرسالة ان يناقش فكرة واحدة من الافكار التي عرضتها في « أخبار اليوم » او في « الاداب » ، لانه هو وأمثاله لا يطبقون المناقشة الموضوعية ، ويهربون منها الى ترديد تفاهات .. لانغني شيئا امام الحقائق التي تدمغهم وتدينهم . فلم يستطع صاحب الرسالة ان يقول شيئا حقيقيا يدافع به عن ادونيس .

واذا حاولت ان احدد لقطة موضوعية واحدة في هذه الرسالة فهذه النقطة الوحيدة هي الفرق بين فينيقياس والفينيقي في قصيدة البعث والرماد لادونيس .

والواقع انني قرأت القصيدة جيدا ، وقرأت التفسير النقدي الذي قدمته خالدة سعيد زوجة ادونيس «للفينيقي» ذلك الطائر الاسطوري ، وقد اشرت الى هذه الاسطورة في جريدة « أخبار اليوم » في القسم الثالث من دراستي لادب القوميين السوريين « عدد ١٠ مارس سنة ١٩٦٢ من جريدة أخبار اليوم » ، وذلك قبل ان تصلني هذه الرسالة بفترة طويلة .

* الكاتب يقصد هنا ان ادونيس هو اعظم شعراء العربية على الاطلاق.

لست من المتحمسين لتقد الشاعر على أساس سياسي، فهذا الاتجاه في الادب يؤثر كثيرا على القيمة الفنية للانتاج الادبي ، ولكننا مع ذلك لايمكن ان نتجنب هذا الموقف في اللحظة التاريخية الراهنة التي يعيشها وطننا العربي ، ففي هذا الوطن الحريج من كل جانب، تتصارع الافكار والتيارات، وكاتب هذه السطور مؤمن مع آلاف المواطنين العرب ، بان طريق الخلاص لوطننا العربي هو طريق القوة العربية وطريق الاشتراكية في الوقت نفسه ، والقومية العربية والاشتراكية هما الجناحان اللذان تطير بهما الثورة العربية وتنطلق لتحقيق اهدافها في تغيير الواقع الاجتماعي والفكري لقلب حضارتنا بوجهيها المادي والمعنوي .

وأي تأمل لواقعنا العربي-الراهن يكشف ان الثورة العربية تواجه ثورة مضادة ، ولهذه الثورة المضادة عدد من الكتابات المختلفة من الناحية الشكلية ، والتي تتفق في النهاية اتفقا كاملا من ناحية الغاية والهدف ، والقوميون السوريون هم جزء من الثورة المضادة للثورة العربية ، هم كتيبة من الكتابات الكبرى في جيش هذه الثورة المضادة .

وعندما كتبت سلسلة من المقالات في جريدة « أخبار اليوم » ثم كتبت مقالا في العدد السابق من « الاداب » اوضح فيه بعض مواقف القوميين السوريين في الميدان الادبي تلقيت عدة رسائل تهاجمني اشد الهجوم على هذا الموقف ، وحسبي هنا ان اشير الى اعنف رسالة تلقيتها ، وكانست بتوقيع « احمد مهدي الامام » ، ويدعي الكاتب انه عراقي ، رغم اعتقادي انه من جماعة مجلة « شعر » المعروفين في لبنان ، وان الاسم « مخترع » لتغطية الاسم الحقيقي لصاحب الرسالة .

يقول صاحب الرسالة وانا انقل الرسالة هنا بالنص :

« صدفة وقعت بين يدي ، وانا اقوم بزيارة لبيروت نسخة من جريدة اخبار اليوم وفيها مقال نقدي عن الشاعر ادونيس امير شعراء القوميين السوريين . مالي وللحزب ، فانا لست من مؤيديه ، اما الشاعر ادونيس فقد استغربت ان يسوق فلهم اللامع عادة هذه التهم المجوفة بحق ، ويشهد الله اني كنت في المقهى حين قراءتي للمقال المذكور فما تماكنت نفسي من الضحك العلني والقهقهة حتى الامر « كذا في الرسالة » الذي جعل نادل المقهى يستوضحني عن سبب هذه الضحكة العالية التي اسقطت طعم اسناني من فمي وتحطم على الارض ، بينما كان الآخرون يسقطون في ذهول تام . وقلت للنادل : باللقباء ، انعرف ماهو الفينيقي؟ فاجابني وهو على قسط من العلم : بانه طائر اسطوري يحترق عندما يهرم ، لينتجد ويبعث حيا من رماده .

وازداد عجبني ، نادل المقهى يعرف ماهو الفينيقي والناقد رجاء النقاش لا يعرفه ... يظنه فينيقا . لله ما اوسع مجهولات السيد رجاء . وعندما علم النادل بالامر قال لي : لاستغرب ياسيدي ، فقد تساءل احد رجالات مصر الكبار ذات مرة ، في اية معركة استشهت اللواء اسكندرون « واللواء اسكندرون يا سيدي معلومناك ، هو جزء سلخ من سوربه وضم الى تركيا » واصاف النادل : ومرة كتب كمال الملاخ عن القائد الاسباني العظيم هانيبال !

وان اسطورة طائر الفينيق ليست الا ستارا خارجيا شفافا يخفي تحته المعنى السياسي الذي يريد ان يقوله لا معلقة طائر الفينيق بمدينة صور القديمة . . مركز الفينيقيين القدماء ؟

معلقة طائر الفينيق بمدينة قرطاجنة مركز الحضارة الفينيقية المزدهرة ، والمدينة التي جعلت من الفينيقين « انجليز العالم القديم » كما يسميهم المؤرخون المعاصرون ؟ ما هي علاقة طائر الفينيق بحريق قرطاجنة الذي دمرها وقضى عليها ؟ . . صحيح ان طائر الفينيق كما تقول الاسطورة يحترق ليعبث من جديد . . ولكن الا يدل هذا على ان الشاعر قد قصد الى التطابق المباشر بين الواقع التاريخي لمدينة قرطاجنة والواقع الاسطوري لطائر الفينيق ، فقرطاجنة قد احترقت لتعود من جديد ، كما يحترق الطائر ليعود من جديد ؟

اليست هذه كلها دلائل مستمدة من قلب القصيدة تؤكد ان المعنى الاساسي هو المعنى الحضاري والسياسي . . وليس هو المعنى الاسطوري فقط كما يقول صاحب الرسالة الصغير ؟

وعندما يقول ادونيس في هذا الجزء من القصيدة ايضا :

آه ، آه ، رثناي جمرة
يخطفني بخورها ، يطير بي لوطن
أعرفه أجهله .

عندما يقول ذلك ، فهل يسمح صاحب الرسالة الصغير بان يقول لنا الى أي وطن يحن شاعره ادونيس ؟ هل يحن الى سوريا التي طرد منها لانه قومي سوري صريح ؟ هل يحن الى الوطن العربي المجزأ المنقسم المجروح الذي لم يقل فيه كلمة حب واحدة وهو الذي يقول الشعر منذ ما يقرب من خمس عشرة سنة ؟ بل وهو الذي ملا شعره تنصلا من العزوبة وحقدا عليها ؟

الى أي وطن يحن هذا الشاعر ان لم يكن الى فينيقيا وسوريا الكبرى وغير ذلك من المشاريع التي يحلم بها ويتناها القويون السوريون ؟ اني اتمنى ان يكشف صاحب الرسالة عن وجهه ويجب بعلمه الغزير على كل هذه الاسئلة ؟

في الجزء الرابع من القصيدة يقول الشاعر :

نيراننا جامحة الاوار كي يولد فينا بطل
- التثمة على الصفحة ٧٢ -
مدينة جديدة

ولكنني مع ذلك اعتقد ان المعنى الاساسي في قصيدة ادونيس هو المعنى السياسي ، معنى الحنين الى فينيقيا ، والدعوة الى بعثها وتجديدها ، ولو حلف لي ادونيس واصحابه على القرآن والانجيل والتوراة ، انهم يقصدون مجرد معالجة فنية للاسطورة لقلت لهم انتم كاذبون كهدنا بكم دائما ، ولن اقول هذا عنادا مني واصراراً على رأي لانؤيده البراهين ، بل سأقوله استنادا الى شيتين :

اولا : النص الفني للقصيدة البعث والرماد .
ثانيا : وجهة النظر العامة التي يبثها ادونيس في شعره وفي كتابته النثرية ويردها معه ادباء مجلة شعر .
فاذا عدنا الى قصيدة البعث والرماد وقفنا امام المقطع الاول لنجد ادونيس يقول :

أحلم ان في يدي جمرة
آتية على جناح طائر
من أفق مغامر

أشم فيها لها هياكلها
ربما لصور فيها سمة امرأة
يقال صار شعرها سفينة

أحلم ان شفتي جمرة
أخالها قرطاجنة العصور
كل جمر شرارة

والطفل فيها حطب - ذبيحة المصير
مثل قبس ان لم يضيء يموت
آه ، آه ، رثناي جمرة

يخطفني بخورها ، يطير بي لوطن
أعرفه أجهله
.....

يشير الشاعر في هذا المقطع الى ثلاثة اشياء :

اولا : مدينة صور
ثانيا : مدينة قرطاجنة وحريقها المشهور الذي اشعله الرومان في تلك المدينة بهدف القضاء عليها وتحطيمها .
ثالثا : شخصية امرأة معينة ، ولن تكون هذه المرأة بحكم السياق الفني للقصيدة سوى اديرة « صور » ابنة ملك « صور » التي هربت من مدينتها الاولى لتقيم مدينة قرطاجنة التي اصبحت مركزا ضخما لحضارة الفينيقين وتجارتهم .

وهذه الاشياء الثلاثة التي يشير اليها الشاعر في الجزء الاول من قصيدته هي اجزاء هامة من تاريخ فينيقيا والفينيقيين .

يقول ويل ديورانت في كتابه قصة الحضارة « الجزء الاول من المجلد الثالث » :

« تعزو الروايات القديمة انشاء هذه المدينة - أي قرطاجنة - الى اليسا Elissa ابنة ملك صور ، فتقول ان اخاها قتل زوجها فأبحرت مع طائفة اخرى من المغامرين الى افريقيا وسمى المكان الذي استقرت فيه باسم كارت هدشت أي المدينة الجديدة والذي تحول بعد ذلك الى اسم « قرطاجنة » ، وهاجر كثيرون من سراة اهل صور الى افريقية ، واستقر معظمهم في قرطاجنة فأصبحت بسبب هذه الهجرة مركزا جديدا للتجارة الفينيقية ، واخذت قوة قرطاجنة وعظمتها في الازدياد كلما أخذت صور وصيدا في الاضمحلال » .

الا يعطينا هذا دلالة أكيدة على ان الشاعر قد ربط بين اسطورة « الفينيق » وبين فينيقيا ربطا واضحا ، وانه في الحقيقة انما يهدف الى تأكيد المعنى التاريخي السياسي ،

فندق نيوبالاس

إدارة : فتحى نوفل

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

وسط راوت
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف



١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريس سابقا) القاهرة
تلف: ٥٩٣٦٦
٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo

البعث والرماد

- تمة المنشور على الصفحة ١٣ -

وفي نفس هذا القسم الاخير من القصيدة يعود فيقول:

... آه خلني لمرة اخيرة

أحلم أن رثتي جمرة

آتية على جناح طائر

من أفق مفاخر

وخلني أشم فيها اللهب الهياكلي

ربما لصور فيها سمة

وربما تجسدت قرطاجة:

دقائق الفبار فيها لهب

بلى، بلى، حتى الفبار لهب

والطفل فيها حطب، ذبيحة المصير

مثل قبس أن لم يضيء يموت، لا يكون.

آه خلني لمرة اخيرة

أحلم أن رثتي جمرة

ياخذني بخورها، يطير بي

لموطن أعرفه أجهله.

ان المدينة الجديدة التي يحلم بها الشاعر ليست هي الجزائر الثائرة التي قدمت في سبع سنوات مليوناً من الضحايا، وليست هي بور سعيد التي تلقت على صدرها الاف الاطفال والشباب والنساء والرجال قتلوا كلهم في معركة اليمه حزينة. ليست هذه هي المدينة الجديدة التي يحلم بها ادونيس، ولكن المدينة التي يحلم بها هي قرطاجنة، والبطل الذي يحلم به هو بطل القوميين السوريين ولا شيء غير ذلك.

ابعد هذا كله يمكن ان تكون اسطورة طائر الفينيق هي « جوهر » قصيدة البعث والرماد لادونيس؟ اننا لسنا مجموعة من السذج لنصدق هذا او نسلم به، فالحقيقة تكشف نفسها من بين سطور ادونيس، فما اسطورة طائر الفينيق الا حجة فنية خارجية يلجأ اليها ادونيس ليخفي امله الحقيقي المشود في جو اسطوري: وما هذا الا مل

فتاة في المدينة..

مجموعة اقصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

صدر حديثاً

دار الاداب

الا عودة فينيقيا الى الحياة وانتصارها على الحريق التاريخي القديم.

وعندما قلت ان ادونيس ينادي فينيقيا، في قصيدته لم اكن اجهل الاسطورة التي اشار اليها صاحب الرسالة الصغير، وانما كنت ادرك تمام الادراك ان هذه الاسطورة انما هي حجة زائفة للوصول الى الهدف السياسي الذي يقصد اليه الشاعر، لان النتيجة البعيدة تكشف نفسها لكل من يحاول ان يقرأ هذه القصيدة بشيء من التاني او الانتباه.

ولا يمكن لاحد ان يعترض على استخدام الاسطورة في الشعر، فمثل هذا الاستخدام اذا تم على يد شاعر موهوب فانه يدفع الشعر الى اعماق بعيدة، ويجعل منه عملاً فنياً غنياً بمادته، يقف امامه الانسان طويلاً ويتأمله، وهذا الاتجاه يدفع الشعر العربي بالذات الى آفاق جديدة خصبة، لم يعرفها تاريخنا الادبي، لان الشعر عندنا قد وقف في تاريخه القديم عند حدود الشعر الغنائي، ولم يتعد هذه المرحلة، ولا شك ان ادونيس يحاول هذه المحاولة، ولا شك ايضاً انه شاعر موهوب قادر، ولكن ادونيس لا يستطيع أبداً ان يصل الى «الصدق الفني»، لانه يستخدم الاساطير لغرض آخر غير فني، هو التعبير عن شعوره العدائي نحو القومية العربية بطريقة ابحاثية خفية، والتعبير عن ايمانه بافكار القوميين السوريين عن الحضارة الفينيقية وعودة الحضارة الفينيقية.

وقصيدة «البعث والرماد» ليست الا نموذجاً من محاولات ادونيس لاخفاء مشاعره الحقيقية، وللتعبير المتلوي عن المعاني الاساسية التي يريدنا ويدعو اليها، انه يريد ان يقول شيئاً معيناً ولكنه لايجرؤ على الجهر بهذا الشيء، ولذلك تخرج قصائده مرتبكة مليئة بالضباب، وهذا هو ما سميته «بعدم الصدق الفني»، ولكن رغم هذا الارتباك فان شعر ادونيس يكشف عن مقاصده الحقيقية وافكاره المخفية.

وجهة النظر العامة لادونيس تؤكد انه يرمي الى احياء افكار القوميين السوريين بهذه القصيدة وبغيرها من القصائد، فقد اختار لديوانه الاخير عنوان مهيار الدهشقي، ولماذا اختار اسم «مهيار» ان لم يكن يرمي بذلك الى تشبيه نفسه بشخصية «مهيار الديلمي» الشاعر القديم الفارسي الاصل؟ ان دلالة هذا الاسم هي ان ادونيس يريد ان يقول لنا انه ليس من اصل عربي، وانه ينتمي الى اصل اخر كما كان مهيار ينتمي الى الفرس.

هل يريد صاحب الرسالة ان يقول ان مهيار هو ايضاً نوع من الطيور او الحيوانات؟... ان صاحب الرسالة يعرف كما يعرف ادونيس تماماً انهما يحملان في راسيهما افكار القوميين السوريين المعادية للعروبة والقومية العربية. وليست بذلك اريد ان اخرج احداً، او ان اتهم احداً، فانا اول من يتمنى ان يعود شاعر موهوب مثل ادونيس الى نطاق التفكير العربي الصحيح، هذا التفكير الذي يتفلسق تماماً مع مصلحة كل مواطن عربي.. مصلحة حاضره ومستقبله... والذي يتفق مع آمالنا في خلق حضارة قوية قائمة على أسس عصرية في المنطقة العربية، وخلق ثقافة عربية عالمية تقف جنباً الى جنب مع أي ثقافة عالمية متقدمة.

ولست اريد ان اقطع في المستقبل برأي، ولكنني مع ذلك احسن ان ادونيس واصحابه من امثال كاتب الرسالة قد باعوا انفسهم للشيطان واصروا على الوقوف في وجهه

آمال شعبيهم واماني هذا الشعب ، وملأوا انفسهم بمشاعر الغرور والتعالي والحقد ، فلم يعد باستطاعتهم ان يعترفوا بضرورة السير في الطريق الصحيح .

قريباً :

سلسلة القصص العالمية

وفيهما تقدم دار الاداب اروع ما كتبه كبار ادباء العالم من القصص الطويلة والقصيرة .

انتظروا الحلقة الاولى :

قصص سارتر

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الفيثيان - الجدار - الغرفة - ايروسترات -
صميمية - طفولة قائد - صداقة عجيبة

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سميل ريس

والحلقة الثانية :

قصص كامو

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغريب - الزوجة الحائنة - الجاحد - البكم
الضيف - جونس - الحجر الذي ينبت

ترجمة

عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الاداب

وليس امامنا الا ان نعرف ماذا يقولون وماذا يريدون لكي نتجنب اخطارهم ، فهم لو استطاعوا لاحرقوا الوطن العربي ، مثلما احرق الرومان قرطاجنة . . . وكما احرق نيرون روما وهو يضحك ، وقد عجزوا ان يحرقوا المدن والقري ، ولذلك فهم يملأون الحروف والسطور حرائق وهم يشعلون في هذه الحرائق كل ما آمنت به الاممة العربية في معركتها الراهنة ، وكل ما تضمه هذه الاممة العظيمة في صدرها من عقائد واحلام .

وكل محاولة للفهم هي اطفاء لحرائقهم ، ولذلك فمحاولات الفهم بالنسبة لهم شيء اليم مزعج ، وهم لا يملكون ان يكونوا واضحين او ان يناقشوا الامور بطريقة موضوعية ، ولذلك فهم يلجأون الى أمثال تلك التهم التي وجهها صاحب الرسالة التي قدمت نصها في هذا المقال .

ان هناك شيئاً كبيراً يربط بين القوميين السوريين ذلك هو الحقد على مصر ، ومحاوله خدشها والتقليل من قيمتها . لماذا؟ لان انضواء مصر تحت الراية العربية قد بدأ يغير اتجاه الريح بالنسبة للقضية العربية الكبرى ، ولن يبقى مكان لدعاة الفينيقيّة ودعاة الفرعونية ، لان الاممة العربية احرص على تراث الفينيقيين والفراعنة من هؤلاء الدعاة الزائفين الذين يقفون في ذلك الطابور الهزيل امام السفارات الاجنبية المرتجفة من المد الثوري العربي .

انهم يحقدون على مصر ، لان اهلها « الحشاشيين والحشاشات » - كما يقول صاحب الرسالة الصغير - يعيشون الان في القرن العشرين ويتخطون عصور التخلف التي يعيش فيها صاحب الرسالة وامثاله . . . ان الحشاشيين والحشاشات يصنعون معجزة السد العالي ، ومعجزة الجيش العربي ، ومعجزة الصناعة العربية المستقلة لاول مرة في التاريخ العربي ، وهم الذين يدخلون التجارب العظيمة بجرأة واقدام ، وينجحون بلا غرور ويفشلون بلا مرارة لانهم قرروا ان يقوموا بدورهم في طليعة الثورة العربية ، هذا الدور الذي يحتاج الى الكثير من التضحيات والالام ، ولقد قرر « الحشاشون والحشاشات » ان يدفعوا هذه التضحيات ويتحملوا هذه الالام لكي تعود فلسطين وتنتصر الجزائر ويسترد العرب لواء الاسكندرونة ، ولكي لا يبقى في الوطن العربي العظيم كلاب صغيرة تنبح يمزقها الحقد وتقتلها المرارة ، وتفرض كل يوم مشاعر سوداء في شكل سخرية ثقيلة الظل واتهام بالجهل يوزعونه على الناس واصحاب هذا الاتهام غارقون في جهل روحي لانهاية له رغم التشدد بأسماء الاساطير القديمة والحديثة والسهر في كباريات باريس وروما وبيروت .

ان الذي يتحكم في هذه الكائنات هو الفرع من زيادة الوعي العربي في مصر ، ومحاوله التقليل من اهمية هذه الظاهرة الهامة في ثورتنا العربية . . . وهي ان مصر تقطع كل يوم مراحل ضخمة في اتجاهها العربي الصحيح . ولكن التاريخ يتحرك في عكس الاتجاه الذي يتمناه الخوارج على الثورة العربية من اعدائها الصرحاء والمستترين .

رجاء النقاش

القاهرة